العرب
الأربعاء 2019/12/04
السنة 42 العدد 11548

الفن المعاصر يستعبد الحرفيين ويلغي مفهوم الفردانية

حرفيون مغمورون تسمى إبداعاتهم «عمل العبيد» محرومون من تحقيق مجد فني

أحيانا نشاهد أعمالا لحرفيين مفعمة بالجمالية ولها رسالتها الثقافية أيضا وتكتنز مهارة فنية عالية وإتقانا ملحوظا، لكن نتساءل هنا هل ترقى أعمال الحرفيين هذه، سواء في الفنون البصرية أو حتى في الأدب وغيرهما من ضروب الإبداع المختلفة، إلى مرتبة الإبداع الفني؟ وهل الفن فقط مهارة وإتقان؟

شرف الدين ماجدولين
كاتب مغربي

من السمات المميزة اليوم للمقصود بالفن المعاصر تلك التي تقرنه بتخطي المهارة إلى امتلاك خيال بصري يصطنع للفكرة مقابلا صوريا، خالبا وإشكاليا وصادما في آن.

> التصوير والنحت ليسا ممارستين تستندان فقط إلى الخبرة وإلى مهنة وإلى مهارة الحرفي، وإنما تتحولان إلى نشاط ثقافي

لا يهم في هذا السياق أن يكون الفنان حاذقا في صناعة "الشيء" المعروض، الذي يمثل الكشف المفهومي والمعنوي، البليغ والمدهش، فالأهم هو هندسة الفكرة، والقدرة على تمثّل صيغتها الحسية. الأمر هنا شبيه بما يمتلكه المهندس المعماري (الاستثنائي) من بصيرة جمالية يوكل تنفيذها إلى فريق من المساعدين والرسامين والتقنيين، ممن يبدون أكثر امتلاكا لحرفية الإنجاز التطبيقي على الورق للعمل المفكر فيه.

الماهرون والفنانون

في هذا السياق يمكن تخيل عدد لا نهائي من الأسماء المغمورة لحرفيين لن يكون بمقدورهم يوما أن يوقعوا أعمالا ولو أنهم سهروا على تنفيذها، من الأشكال البدائية إلى الصيغ المقدمة للعرض. مثلما أن عددا كبيرا من الكتاب يمتهنون حرفة صياغة النصوص للمشاهير ممن لا يمتلكون القدرة على الكتابة لكن لديهم مسارات حياتية وتجربة، تغري الناشرين بتحويلها إلى كتب تبيع الملايين من النسخ. هؤلاء الصاغة غير معروفين، ولهذا يسمى عملهم في المصطلح الغربي بعمل "العبيد" (النيغر)، إذ يترجم مقدار ما ينهضون به من عمل صعب ودقيق وغير مفض، في المقابل، إلى مجد فني، بما أنهم يقبضون أجورا عن عملهم ذاك، وينسب في النهاية للمؤلف الشهير الذي لم يؤلف شيئا.

في أحد مباحث كتاب "ما الجمالية؟" يتحدث الباحث الفرنسي مارك جيمينيز عن الجوهر النهضوي للفن الذي يباعد بينه وبين المثول بما هو تفكير في صياغة الأعمال المتقنة ذات الكنه الاستعمالي، بما في ذلك اللوحات المقترنة بالغاية التزيينية للصالونات الفارهة، في هذا السياق يرى أن "التصوير والنحت ليسا ممارستين تستندان فقط إلى الخبرة وإلى مهنة وإلى مهارة الحرفي، وإنما تتحولان إلى نشاط ثقافي يضع قيد العمل عددا من الملكات والمؤهلات التي تسمح للفنان بتخطي رتبته كحرفي بسيط، لكي يوافق صورة النهضوي ذي النزعة الإنسانية".

في الفن المعاصر الذي يتهم عادة بالافتقاد للشرعية، (بتعبير مارك جيمينيز نفسه)، بالنظر إلى "استساغة السهولة، وإنتاج أي شيء كان، مع تفضيل الصيت الإعلامي على الإنجاز الفني"، ستبدو عملية الاتكال المسترسل على قاعدة الحرفيين بمثابة تزييف للحقيقة الإبداعية، كما أن ضحالة الحصيلة الثقافية لعدد كبير من الفنانين اليوم مقارنة بنظرائهم قبل خمسة عقود مثلا، تضع محل تساؤل جدوى المراهنة على مضمون ثقافي يضطلع بوظيفة نهضوية لمنحوتات وتنصيبات وشرائط فيديو هي من خالص علم التقنيين، وليست لها تلك النضارة الرؤيوية التي تسند فكرة العمل، فتبدو ضحلة وضعيفة وعامية في مجملها، ومنذورة للعبور المؤقت.

انتهاء الفردانية

لا جرم أن يتمثل المأزق هنا، أساسا، في عدم التمييز بين العجز عن التنفيذ، والزهد في تضييع الوقت في عمل تقني، قد ينجزه الآخرون، وبين الاتكال على فرادة الفكرة التي قد تتطابق مع العشرات من الأشياء الجاهزة.

وبناء على هذا الافتراض يبدو الاتكال الكامل على التطابق بين الجهد الذهني الخاص وتمثيله الحسي بما هو هروب من وضع العجز إلى التحقق عبر الآخرين؛ أذكر في هذا السياق كيف لفت انتباهي أحد الفنانين المغاربة ونحن نتأمل منحوتة معاصرة، في معرض لأعمال فنان شهير، إلى الطابع الحرفي الدقيق للمنحوتة الذي لا يتماثل مع أعمال سابقة لصاحبها، ليستدرك أن في الأمر تدخلا للتقنية الصينية التي شرعت تدريجيا في الاستحواذ على كل شيء، من المطروزات التقليدية إلى المنحوتات المعاصرة، التي تباع بأثمان باهظة، بوصفها تشكيلات أبدعتها يد الفنان. وقبل سنوات كان قد تسبب إنتاج عدد كبير من النظائر للتحفة الواحدة، بالاعتماد على الحرفيين.

إن مفهوم الفردانية المتصل باللوحة لم يعد ممكنا في ظل الانتقال اليوم من عمل يدوي لفنان بارع، إلى مؤسسة المشغل التي تنطوي على فريق من المساعدين، وبانتشار التقنية المذللة لحرفية استثنائية. إنه تحول يوازي الانتقال من النفيس والفريد إلى المتاح والمكرر، ومن الثابت إلى المؤقت، فالعشرات من التنصيبات اليوم، مصنوعة لمؤسسات ومتاحف بوصفها تعبيرات دالة على حساسية ما، وقيمتها مستمدة من تأويلات الفنان المعاصر نفسه، الذي تحول مجهوده إلى التواصل والشرح وإنفاذ الأثر، أكثر من الاستغراق في إنشاء الصيغ التشكيلية من فراغ.

وفي النهاية لا يمكن إلا أن نعتقد في صدق افتراض مؤرخ الفن الألماني هانس بلتينغ حين تحدث في كتابه "نهاية تاريخ الفن"، عن "ارتباط الفن ارتباطا وثيقا بالفنان الذي يعبر فيه عن شخصه كما يرتبط بالمتأمل الذي يمكن أن يتأثر به شخصيا. ومن ثم فإن الفن هو بشكل خفي منافس للتقنية التي يكمن جوهرها في أنها توظف الاستعمال وأن معلوماتها لا تتعلق بالمبدع بل بالمستخدم".

الفن منافس للتقنية

انحسار النقد في الثقافة العربية

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

في حوار أجريته معه في صيف عام 1986 بمدينة هامبورغ الألمانية، قال لي الكاتب الكبير ألبرتو مورافيا إن الإشعاع العالمي الذي حققه الأدب الإيطالي بعد الحرب الكونية الثانية يعود إلى حركة نقدية هائلة واكبت الشعر والنثر، وفيها ساهم بقدر هام كتاب وشعراء إلى جانب نقاد مشهود لهم بالمهارة والذكاء، والقدرة على اكتشاف المواهب الجديدة وعلى فتح آفاق لم تكن مألوفة حتى ذلك الحين خصوصا بعد أن نقلت إلى لغة دانتي أعمال شعرية وروائية وفكرية وفلسفية ونقدية كانت لها أصداء هائلة.

وأضاف صاحب "امرأة من روما" قائلا بأن العديد من مقاهي روما وميلانو، وغيرهما من المدن الإيطالية الكبيرة تحولت إلى نواد ثقافية فيها تناقش النصوص الجديدة "بلا شفقة ولا رحمة" بأصحابها، بحيث تغيب المجاملات والعواطف تماما ليكون النص هو المنطلق الأساسي للنقد.

والأمر ذاته حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. فقد دأب "جماعة 48" الذين حققوا للأدب الألماني الإشعاع العالمي أمثال غونتر غراس، وهانس ماغنوس انسنسبرغر، وهاينريش مان، وغيرهم على إخضاع نصوصهم لنقد جدي تغيب فيه أيضا المجاملات، ويعلو الرأي النقدي الصريح.

وفي فرنسا، تفاعل النقد بجميع أشكاله مع الموجات الأدبية التي عرفتها فرنسا منذ عصر النهضة. وفي القرن التاسع عشر، أصبح سانت بوف، "سيد" النقد الأدبي. لذا كان قادرا على إعلاء شأن هذا الكاتب، أو هذا الشاعر، أو الحط من قيمة أعمالهما من خلال مقالاته التي كانت تصدر كل يوم اثنين لتكون حديث المقاهي والنوادي والصالونات الأدبية في باريس.

وفي القرن العشرين، واكبت "المجلة الفرنسية الجديدة" كل الحركات الأدبية بمختلف أنواعها وأشكالها. وقد أشرف على هذه المجلة نقاد وأدباء كبار أمثال جان بولان، وأندريه جيد. ولا تزال كتب رولان بارت مراجع أساسية في مجال النقد الأدبي لا في فرنسا وحدها، بل في جميع أنحاء العالم.

وقد عرف الأدب العربي في النصف الأول من القرن العشرين نهضة هامة بفضلها ظهرت أشكال تعبير جديدة مثل المسرح، والسينما، والرواية، والشعر الحر. ويعود ذلك إلى بروز نقاد واكبوا هذه النهضة منذ بدايتها.

وكان الدكتور طه حسين يهتم في جل كتاباته بالثقافة العربية في ماضيها وحاضرها. فقد كتب عن المتنبي والمعري وشعراء ما قبل الإسلام، أو بعده من دون أن يغفل عن أدباء عصره، أو عن الأدباء والشعراء الغربيين انطلاقا من العصور الإغريقية والرومانية، وحتى القرن العشرين.

ومثله فعل العقاد، وإبراهيم المازني، ومحمد مندور، ولويس عوض. وفي بلاد الشام، تألق مارون عبود الذي ابتكر طريقة نقدية بديعة لم يسبق لها مثيل في الثقافة العربية. وفي تونس، تجرأ الشاعر الكبير أبو القاسم الشابي على تحدي "قداسة" الشعر العربي القديم، كاشفا عن العديد من عيوبه الجمالية والفنية في كتابه الشهير "الخيال الشعري عند العرب".

وأما كتاب "الغربال" لميخائيل نعيمة فلا يزال يحتفظ بنضارته وقوته النقدية إلى حد هذه الساعة. وكانت لجماعة مجلة "شعر" جلسة أسبوعية تدور خلالها نقاشات جادة حول النصوص التي تعتزم المجلة نشرها.

وفي العديد من المرات، أشعل النقد الجاد والصريح معارك فكرية وأدبية كان لها دور أساسي في بعث الروح في الثقافة العربية التي ظلت على مدى قرون طويلة تعاني من التحنط والجمود.

انطلاقا من الستينات من القرن الماضي، ومع هيمنة الأحزاب الواحدة على أنظمة الحكم، بدأت الحركة النقدية تشهد تراجعا مخيفا. وبسبب الخوف من أجهزة الرقابة، ومن وسائل القمع الرهيبة التي كانت تنتهجها الأنظمة الحاكمة ضد حرية الفكر والتعبير، لم يعد النقاد يجرأون على الجهر بآرائهم في مختلف القضايا سواء كانت ثقافية أم سياسية أم اجتماعية، أو غيرها.

وقد انجر عن ذلك بروز مثقفين انتهازيين تمكنوا بسرعة من الهيمنة على الحياة الثقافية والأدبية في جل البلدان العربية، لتشهد الحركة النقدية تقلصا كبيرا. وبسبب ذلك، قفز إلى الصف الأول أدباء من الدرجة الثانية أو الثالثة، أو ربما أقل من ذلك. وهذه "القفزة" تحققت لهم لا بسبب جودة أعمالهم، وإنما لأنهم قبلوا أن يكونوا "خدما" طيعين للأنظمة القائمة.

ومع مرور الزمن، كثرت المجاملات، وتعددت "المافيات" لتتعفن الحياة الثقافية في جل البلدان العربية، وليجد أصحاب المواهب الحقيقية أنفسهم في العتمة.

وقد ازداد الوضع سوءا خلال العقود الماضية خصوصا بعد أن أصبحت وسائل الاتصال الجديدة منابر إعلامية وثقافية منها يطل كل من هب ودب ليمارس التجريح والسب والشتم والمس من كرامة هذا أو ذاك من دون حسيب أو رقيب. وضحايا مثل هذه الأساليب المشينة يزدادون عددا في كل يوم بسبب غياب المنابر النقدية بحسب مفهومها الحقيقي والعادل. لذلك لم يعد غريبا أن يتجرأ أحد طواويس منابر وسائل الاتصال الحديثة على التهجم على كاتب أو شاعر من دون أن يكلف نفسه ولو قراءة سطر واحد له...

غياب الناقد خطر على الأدب (لوحة للفنانة هيلدا حياري)

قصص فلسطينية تتوج بجائزة الملتقى للقصة العربية

الكويت – فازت الكاتبة الفلسطينية شيخة حسين حليوي بجائزة الملتقى للقصة القصيرة، في دورتها الرابعة، حيث أعلن عن فوز مجموعتها القصصية "الطلبية C 345" بالجائزة خلال حفل أقيم مؤخرا بجامعة الشرق الأوسط الأميركية بالكويت، بحضور مجموعة من الأدباء والمترجمين والناشرين العرب والعالميين.

وفازت حليوي بجائزة الملتقى للقصة القصيرة العربية التي تمنحها جامعة الشرق الأوسط الأميركية لمجموعة واحدة منشورة ورقيا باللغة العربية.

ويحصل الفائز على 20 ألف دولار أميركي، فيما تعد أعلى قيمة مالية لجائزة عربية بمجال القصة.

بينما يحصل كل كاتب وصل إلى القائمة القصيرة للجائزة على 5 آلاف دولار.

بلمحة ذكية، ولغة لا تخلو من الحمولات والإسقاطات التي تضع الواقعي والسريالي في بوتقة واحدة، تسرد حليوي قصصا تحيلنا إلى عوالم حميمة، مليئة بالتفاصيل والمشاهد الأقرب في جزئياتها إلى العمل السينمائي، غير المباشر، أين نقترب من ملامسة الحقائق، كما القصص المتخيلة بنفس المسافة التي نقطعها بين قصة وأخرى، بين نصّ وآخر، لاسيما ونحن نمسك بخيط السرد المتواصل دون انقطاع.

وصدر لشيخة حليوي في القصة "سيدات العتمة" و"النوافذ كُتب رديئة"، ومجموعة شعرية بعنوان "خارج الفصول تعلمتُ الطيران"، وتُرجمت نصوصها إلى الإنكليزية والألمانية والبلغارية ونشرت في مجلات عديدة متخصصة.

وأعلنت الشهر الماضي القائمة القصيرة للجائزة، وضمت 5 مجموعات قصصية من أصل 209 مجموعات ترشحت للجائزة، واجتمعت لجنة التحكيم برئاسة الإسباني لويس ميجيل كانيادا، وعضوية كل من الدكاترة سعيد الوكيل وعبدالرزاق المصباحي ورامي أبوشهاب، والكاتبة باسمة العنزي.

جائزة الملتقى
ALMULTAQA PRIZE

> قصص تشبه السينما، مليئة بالحمولات والإسقاطات التي تضع الواقعي والسريالي في بوتقة واحدة

وشملت القائمة القصيرة المجموعات القصصية "احتراق الرغيف" للسعودية وفاء الحربي، و"الساعة الأخيرة" للتونسي سفيان رجب، و"صرخة مونش" للعماني محمود الرحبي، و"الطلبية سي 345" للفلسطينية شيخة حسين حليوي، و"مدن تأكل نفسها" للمصري شريف صالح.

ويذكر أن مازن معروف فاز في الدورة الأولى للجائزة، وفي الدورة الثانية السورية الدكتورة شهلا العجيلي، أما في الدورة الثالثة ففاز الكاتب العراقي ضياء جبيلي.